شعبُ حزبِ اللّه

منى حرب

وُلدتُ وترعرتُ في حارة حريك. في سنة ١٩٨٩ غادرتُ الحارةَ إلى بيروت، لأنّ والديَّ كانا يَخْشيان من صعود حزبٍ متطرّف ـ هو حزب اللّه ـ غَيَّرَ بشكلٍ هائلٍ الأسبابَ التي سبق أن دفعتْهما عامَ ١٩٦٧ إلى الانتقال من بيروت إلى «الحارة»؛ ولأنّني وأخي كنّا نَرْغب في أن نعيشَ على مقربةٍ من أصحابنا.

نشأتُ وفي ذهني انطباعاتٌ سلبيةٌ عن حزب اللّه، الذي صُوِّرَ لي وكأنّه بَيْدَقٌ إيرانيٌّ «يُؤَسْلم» حارتَنا، ويرشو النساءَ كي يرتدينَ الحجابَ، ويرشو الرِّجالَ كي يصبحوا «ملتزمين.» وكانت أُمّي تَكْره أن أشيرَ إلى حارة حريك بـ «الضاحية» لأنّها كانت تَرْفض أن تسمّي حارتَنا باسمٍ يَدلُّ على منطقةٍ سياسيةٍ صاعدةٍ لم تستطع أن تتماهى معها

حين كنتُ أتابع دراستي في التخطيط المُدُني، أَسَرَني أن أحاولَ فهمَ ما يسمّى بـ «أسلمة الفضاء،» وأن أَكْشفَ دورَ حزبِ اللّه في إنتاجها. على هذا النحو اكتشفتُ مؤسَّسات حزب اللّه، وانتهيتُ (أثناء تحضيري لنيل الدكتوراه) إلى أن أكتشفَ أيضًا كيف يُنظِّم الحزبُ تقديمَ خدماتِه المُدُنيةِ والاجتماعيةِ عبر سلسلةٍ من الشبكات. وكان ذلك أيضًا سبيلاً لأن أَكتشفَ أنّ المقاومة ليست كفاحًا مسلَّحًا فحسب، بل هي ـ في الأساس ـ مقاومةٌ اجتماعيةٌ وثقافيةٌ تَحْمل معانيَ بالغةَ الأهمية لجمهور حزب اللّه، وذاتُ جذورٍ ضاربةٍ في تاريخ التشيُّع، وتطبَّقُ من خلال تشكيلةٍ من الممارسات اليومية. وما لبثْتُ أفكاري المسبَّقة عن حزب اللّه أن تهاوتْ، ومَرَرْتُ بمرحلةٍ افتُتِنْتُ فيها بتنظيم هذا الحزب وبحِرَفيَّتِه وفعّاليته. واستغرقني الأمرُ طويلاً قبل أن أعي محدوديّةَ هذا النموذج، ولاسيّما بالنسبة إلى مجتمعٍ متعدِّدِ الطوائف حيث الاستقطاباتُ الطوائفيةُ ليست هي الجوابَ الأفضلَ لي ـ أنا العَلْمانية. ومع ذلك، فإنّ سيرورةَ بحثي مَكّنتْني من تحليل حزب اللّه بطريقةٍ «موضوعية» وأن أفهَمَه وأَقْبلَه بوصفه لاعبًا سياسيًا مشروعًا.

هكذا، بدلاً من أن أعتبرَ حزبَ اللّه ذراعًا لإيران في منطقة البحر المتوسط، قمتُ بدراسته على أنّه نتاجٌ للنظام السياسي الطوائفي اللبناني ـ وهو نظامٌ يحثّ على الانتماء إلى الطوائف ويَدْفعها إلى الاهتمام بأمورها بنفسها وبصورةٍ أخصّ، فإنّ النظام السياسي اللبناني يحثّ على نموذجيْن للحكم: أ) «سحبُ» موارد الدولة وإعادةُ توزيعها على جمهور الطائفة، ب) بناءُ جهازٍ إداريّ مستقلّ. والحقّ أنّ غالبيةَ الحركات السياسية في لبنان تنتمي إلى أحد هذيْن النموذجيْن، وقد تَدْمجهما كليْهما في استراتيجياتها التعبويّة: فحركة «أمل» والحزب التقدُّمي الاشتراكي والمجموعات السنيّة والأورثوذكسية تنتمي إلى النموذج الأول، في حين أنّ «القوات اللبنانية» وحزبَ الطاشناق أقربُ إلى النموذج الثاني أما حزبُ اللّه فهو ذروةُ النجاح في النموذج الثاني. ومن ثم يغدو من الضروري إعادةُ النظر جديّاً في الشعار الأثير اليوم لدى الولايات المتحدة، وهو أنّ حزبَ اللّه «دولة ضمن الدولة»؛ فالحقّ أنّ حزبَ اللّه يتصرّف فعلاً كدولة، ولكنْ ليس ضِمْنَ الدولة، وإنّما ضِمْنَ **نظامٍ سياسيٍّ** يشجِّع ـ من خلال دستوره نفسه ـ على بناءِ دويلات داخلة.

إلاّ أنّ هذه المعرفة لم تساعدْني في التعامل مع الحرب الأخيرة، بل بَعَثتْ في نفسي المزيدَ من الخوف لكوني أُدْرِكُ حجمَ التزام حزب اللّه بالقضية وقوّةَ عزيمته. والحقّ أنّني، في بادئ الأمر، لم أستطع أن أتعاملَ مع الحرب بوصفي باحثةً. وبعد الصدمة الأُولى ذُهِلتُ بقدرات حزب اللّه العسكرية على البقاء، وبمستوى ردّه على الحرب الإسرائيلية. ثم غَمَرتْني مشاعرُ متضاربةٌ: فقد أرعبتني فكرةُ التصدّي لـ «جيش الدفاع الإسرائيلي»؛ لكنّني كنتُ أيضًا فخورةً بالنَّصْر، وتماهيتُ تماهيًا صادقًا مع خُطَبِ السيد حسن نصر اللّه. إلاّ أنّ مشاعر الفخر لم تعمِّر طويلاً، وما لبثْتُ أن اكتسحتْها مشاعرُ القلقِ والهمّ.

شعبُ حزبِ اللّه

كان واضحًا لأيٍّ كان أنّني لم أعِشْ مجتمعَ المقاومة: فأنا لم أستطعْ أن أتعامَلَ مع الحرب إلاّ بوصفي أُمّاً وإنسانًا سَبَقَ أن عاشَ حربًا في الماضي. وكلُّ الآلام النفسية المكبوتة الناجمة عن الاختباء في الملاجئ، والخوفِ من رجالِ الميليشيات، والفزع من الغارات الجوية، عادت لتَسْكُنَني. وتملّكتْني مخاوفُ لاعقلانيةٌ لم تَخْمدْ إلاّ بعد انقضاء أيامٍ عديدة. وبدأتُ ـ تدريجيّاً ـ أَفْهم أنّ هذه الحرب تختلف عن الحرب السابقة، وأنّ العدوّ الذي نواجهه مختلفٌ هو أيضًا. هذا الفهم ساعدَني في التعامل مع أسئلة ابني «نديم» التي كنتُ أتمنى لو لم يسألْني إيّاها قطّ. كنتُ غاضبةً وتحوّلَ الغضبُ إلى غيظٍ شديد، كانت تَقْطعه غالبًا فتراتٌ طويلةٌ من الحزن وعدم التصديق، اللذيْن راحا يتضاعفان كلّما توالَتْ صورُ وحكاياتُ القتلِ والتهجيرِ والعقابِ الجماعي لم أستطع أن «أفكّر» في الحرب رغم محاولاتي. فلقد قرأتُ كلَّ ما يُمْكن قراءتُه من تحليلاتٍ سياسيةٍ عن الأزمات المحلية والإقليمية والعالمية، فلم تَزِدْ مشاعري المتضاربةَ إلاّ اشتدادًا. لم أَقْدرْ على التعبير عن موقفٍ واضح: فساعةً أَشْعرُ بالغضب الشديد لأنّ الصُّمود بدا أمرًا طبيعيّاً جدّاً، وساعةً أشعرُ بالاستنزاف التامّ وبأنّني على استعدادٍ للاستسلام. كنتُ أُحِسّ بالخجل والذّنْب، بالأنانية والضعف. ولطالما صرختُ في وجهِ الصحفيّين الذين اتّصلوا بي ليسألوني رأيي في ما سمّوْه «الصراع» كنتُ منزعجةً من زملائي الذين استطاعوا أن يجدوا القوةَ على نشر تحليلاتهم. كنت أريدُ لسفكِ الدماء أن يتوقّفَ لكي أستطيعَ أن أعملَ من جديد لم أستطعْ أن أَفْهم عجزَ العالم عن وضع نهايةٍ لهذه الجرائم المريعة، وقبولَه تبريراتِ إسرائيل التي لا يُمْكن تبريرُها. وشعرتُ أيضًا بما لا بدّ أن يكون العراقيون والفلسطينيون يَشْعرون به كلَّ يوم. وشعرتُ بالذّنْب لأنّني عِشْتُ كلَّ هذا الزمن وأنا أُنْكِر الحقائقَ الدامغة.

اليومَ، فيما الحربُ تتواصل بطُرُقٍ لا تستدعي سفكَ الدماءِ بشكلٍ مرئيٍّ ولكنّها لا تقلّ عنفًا وظلمًا، ها أنا أبدأُ باستيعابِ الأمور نوعًا ما. إنّ هذه الحربَ تبدو لي الآن صراعًا من أجل الكرامةِ والعِزّةِ والحرية قد يبدو الأمرُ ساذجًا، لكنّه ليس في هذه السذاجة. ذلك أنّ تلك الكلماتِ الثلاث لا تؤدّي المعنى نفسَه لدى كلِّ اللبنانيين: ففي حين أنّها تَرْسم حياةَ الجنوبيين الذين عاشوا تحت تهديدِ إسرائيل طوال العقودِ الثلاثةِ الأخيرة، فإنّها لا تعدو أن تكون مجرّدَ كلماتٍ بالنسبة إلى كثير من اللبنانيين الذين لا يَعُونَ ذلك التهديدَ. إنّ هذا التهديدَ هو ما يميّز موقفَ أولئك عن هؤلاء. فحين تعيش حياتَكَ كلَّها مع عدوٍّ لا ينفكُّ يُثْبتُ لك أنّه سيدمّر بيتَك وسيُحْرِق أرضَك وسيقتلُ أطفالَك، فإنّ خيارَك في الحياة لا يُمْكن إلاّ أن يكون مقاومةَ هذا العدوِّ والتيقُّنَ من ألاّ تصبحَ أنتَ وعائلتُكَ لاجئين أو خاضعين للاحتلال. إنّ فلسطين المحتلة لا تَبْعد عن بلداتِ الجنوب إلاّ بضعةَ كيلومترات، وإنّ مرأى المستوطنات الإسرائيلية يذكّر المرءَ بتلك الحقيقة في كلِّ لحظة إنّ الكرامةَ والعزةَ والحريةَ هي مفاهيمُ مُهَيْكِلةٌ أوْ مشكِّلةٌ (structuring concepts) تعزّز معنى الحياة بالنسبة إلى الناس الذين يعيشون في الجنوب، مثلما تقرّر معنى حياةِ الناس في فلسطين والعراق. والحقُّ أنّ التشيُّعَ يعزّز من خيارِ المقاومة، ويمدُّ الكفاحَ الجنوبي بمفاهيمَ تاريخيةٍ ودينيةٍ مميَّزة.

كثيرٌ من اللبنانيين لا يَعتبرون الحربَ الأخيرة نصرًا للبنان، ويَنْتقدون حزبَ اللّه لأنّه «قادَنا إلى هذه الكارثة.» نعم، إذا لم يَجدِ المرءُ مفاهيمَ المقاومةِ والعزّةِ والكرامة ذاتَ معنى فلن يستطيع أن يَفْهم هذه الحرب، ولن يستطيعَ ـ من ثم ـ أن يَكْسَبَها! فإذا كنتَ مثلَ ذلك المرء، فاسمحْ لي أن أدعوكَ إلى الجنوب إنْ لم تكن قد زُرْتَه بَعْدُ (وأنا أَقْصد جبلَ عامل، لا شواطئَ الجيّة والرميْلة)، لتتحدّثَ مع الناس الموجودين في ما تبقّى من القرى والبلدات، ولتَسْمعَ حكاياتِهم، ولتَشْعُرَ

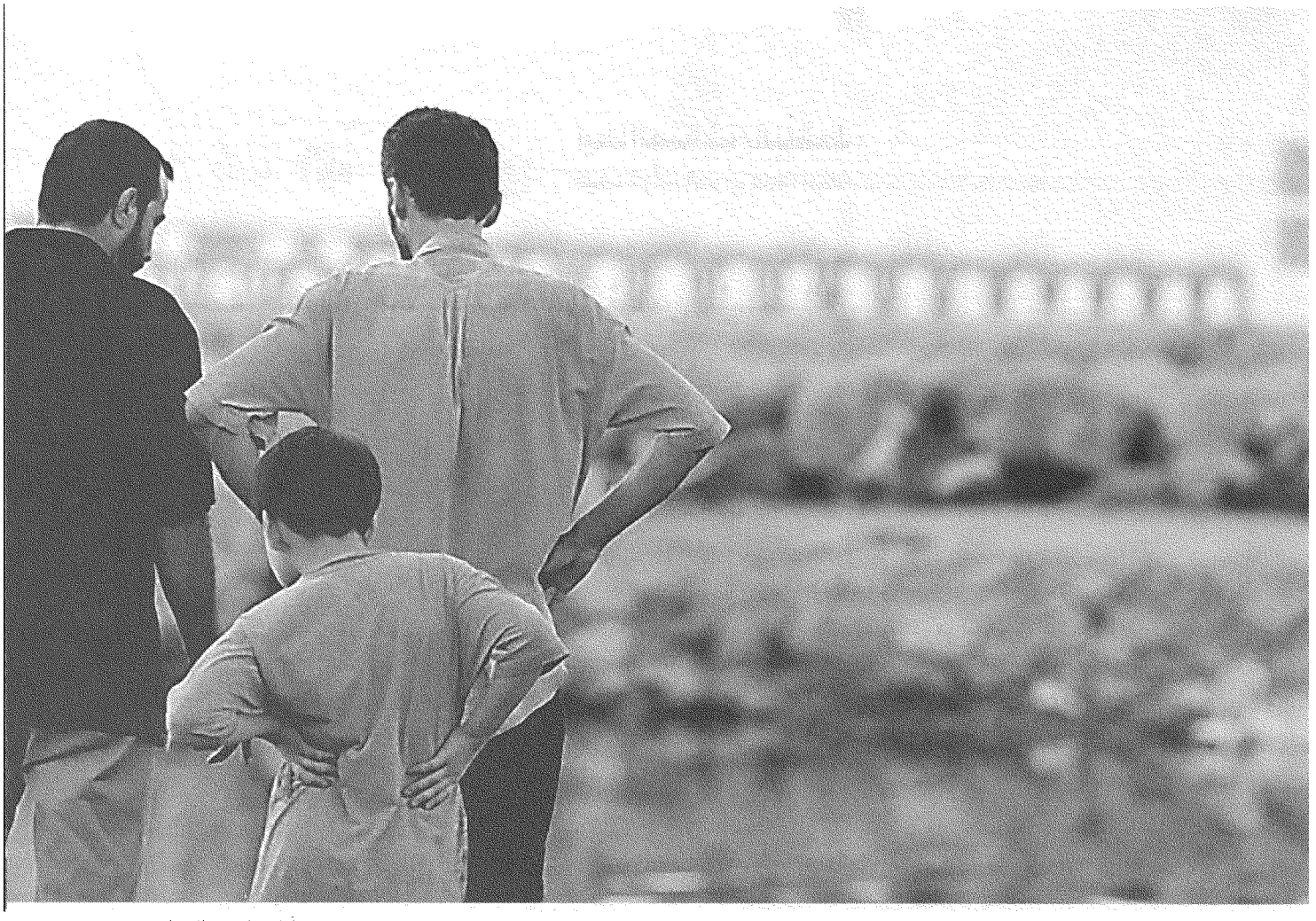

غابرييلا بوليسوڤا

معاينة الأضرار في الأوزاعي

بحقيقةِ الجنوب وتَحْياها. فعندها ربّما قد تُدركُ معاني هذه الحرب. وربّما سيَفْتح الناسُ عقولَهم وقلوبَهم ليَقْبلوا حزبَ اللّه وجمهورَه الشيعي لا بوصفهما تهديدًا انشقاقيّاً مفروضًا على كيانهم، ولا بوصفهما مجموعاتٍ تعرّضتْ لغسيلِ دماغٍ إيديولوجي، ولا بوصفهما أناسًا غيرَ متعلّقين بأولادهم وبيوتهم، بل شركاءُ صلبون وفعّالون في بناء الوطن.

قد يبدو الحزبُ وجمهورُه الشيعيّ مختلفيْن عنكَ، وقد يتصرّفانِ بطريقةٍ مغايرةٍ لتصرُّفاتك. ولكنّهما بالتأكيد متجذِّران في المجتمع اللبناني والسياسة اللبنانية مثل الآخرين، ويستطيعان أن يُسْهما إسهامًا كبيرًا في صياغة «المشروع اللبناني »

بيروت

د. منى حرب

أستاذة التنظيم المُدُني في الجامعة الأميركية في بيروت